مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــــرام

التاريخ : ١٩٧٩/١٠/٥

عندما زلزلت الأرض زلزالها

« انتهى كل شىء ·· سوف يأتى عهد القاصر راكعا ·· وانى لمن انتظار تليفون منه الان !! » واعتدل « ديان » فى مقعده ، مركزا عينيه ، بمصابتها السوداء ، على التليفون ، ومرهفا سمعه فى انتظار الرنين ·· وسابحا يفكر فى تلك الارض الشاسعة ..من النيل الى بردى ·· بعد ان انتهت ضربة يونيو ١٩٦٧ ، وبعد ان قبل المصريون وقف اطلاق النار ···

وطوال الفترة من يونيو ١٩٦٧ حتى اكتوبر ١٩٧٣ لم يسمع ديان رنين التليفون ··· وانما سمع فى ٦ اكتوبر شيئا آخر ، ضيع احلام يقظته

وفجأة ··· ففى الســـادس من اكتوبر ٧٣ والساعة تدق الثانية من بعد الظهر حدث الزلزال وانشقت الارض بكل كبريائها المجروح لتبتلع فى شراهة وشوق، اشلاء العدو المتغطرس

وقد اعترف كل خبراء الاستراتيجية فى العالم بما حققته حرب أكتوبر من آثار وأبعاد ، فى المجالات العسكرية والسياسية والاقتصـادية والاجتماعية والحضارية والعالمية ·· والكلام عن حرب أكتوبر لايسع له مقال ، ولاكتاب ويقصر عن استيعابها كتب ومجلدات ·· وحينما ينصدى الكاتب للكتابة عنها يحـار ، من أين يبدأ ، وأين يسير والى أين ينتهى ·· فالمبدأ متعدد ·· والطريق متشعب ، والنهاية متفرعة ·· **لذلك سوف اتناول جانبا واحدا ممـا حققته الحرب هو جانب الامن القومى ·**

ان أهم نتيجة استراتيجية للحرب ، هى تحقيق الهدف الاساسى المصرى — حسب رأى خبير الاستراتيجية «دوبوى» وهو انهاء حالة اللاحرب واللاسلم بشكل مثير ، وارغام القوتين العظميين على اعطاء اهتمام جاد لموضوع السلام فى الشرق الاوسـط وانهـاء الركود الذى سـاد منذ عام ١٩٦٧ ، كما أعادت الحرب لمصر مركزها القيادى فى العالم العربى ، « خاصة وان الجيش المصرى — والكلام للخبير الاستراتيجى — قد خرج سليما من الحرب كجهاز من أقوى الاجهزة العسكرية فى العالم » ···

والواقع أن من بين الاثار الخطيرة التى حققتها حرب أكتوبر، ضرب نظرية الامن الاسرائيلى من الصميم · **ولم تكن نظرية الامن ، من نتائج حرب ١٩٤٨ أو ١٩٥٦ ، او ١٩٦٧ ، بل انهـا تضرب بجـذورها فى عمـق التاريخ الاسرائيلى وتعتبر لازمة من لـوازم الشعور النفسى،** فقد تطورت منذ الالف الثانى قبل الميلاد بفعل ما تعرض له الاسرائيليـون من هزائم متواليـة فى فلسطين على يد « بختنصر » وسرجون الثانى ، وهادريان ، ونيطس ، من ابادة شاملة ، حتى فروا الى العراق

وتشتتوا فى « الدياسبورا » ، تحت مظلة من الخوف والرعب والهلع ، الذى لم يفارقهم فى البلاد التى استقروا فيها ، بسبب الخلاف الدينى — هذه المرة — مع المسيحيين ، بعد اتهامهم بمعرفة الكنيسة الكاثوليكية بقتله بعد صلبه .

وعندما تيسرت لهم الاقامة فى فلسطين على يد بريطانيا ، بدأوا فى بناء جسور الامن النفسى والفعلى بمجموعة من الانجازات التى شكلت فى — فكرهم — قوام نظرية الامن ، على النحو التالى :

١ — قاموا بطرد السكان العرب من أراضيهم بطرق مختلفه ، تراوحت بين الاغراء على بيع الارض ، الى مصادرة هذه الارض ، الى احتلالها بالقوة العسكرية الى اقامة المذابح الجماعية للشعب الفلسطينى ، مستهدفين اخلاء فلسطين حتى تكون يهودية نقية داخل سور من الامان النفسى . وقد تم لهم حتى يوم الانتهاء الرسمى للانتداب واعلان قيام اسرائيل فى ١٥/٥/١٩٤٨ الاستيلاء على القسم الاكبر من المدن والمناطق الفلسطينية .

٢ — والى جانب «تفريغ» فلسطين من القوة العربية ، قامت الحركة الصهيونية باعادة « ملء » فلسطين ، بالقوة الاسرائيلية وحدها عن طريق زيادة المستعمرات العسكرية وتحصينها وتوفير الحماية الكافية لها ، مع تجهيز قوات ضاربة قادرة على الحركة السريعة لرد أى هجوم عربى . وفى سبيل ذلك قامت اسرائيل بمجموعة من الاجراءات لتأمين الامداد بالسلاح والمعدات من أوربا الشرقية والغربية ، مع ادماج المنظمات العسكرية ، مثل [الارجون زفاى لئومى ، وشترين ، والهاجاناة والبالماخ] فى مجموعة واحدة أصبحت قوام مايسمى بجيش الدفاع الاسرائيلى فى ٢٧ يونيو ١٩٤٨ .

٣ — ادى نشوء الدولة ، وقيام الجيش الى تعميق مفهوم الامن الاسرائيلى فأصبح قائما على أبعاد استراتيجية ، يمكن ايجازها فى الاسس الاتية .

● جعل الجيش الاسرائيلى على أعلى مستوى من التدريب والاعداد ، ليصبح قوة ردع قادرة على اجبار الاخرين على عدم الحركة .

● استخدام اسلوب « الهجوم الوقائى » المتمثل فى شن هجوم شامل وصاعق .

● اجتياز الحدود بين وقت وآخر للقيام بعمليات عسكرية محدودة تهدف اما الى ضرب قواعد الفلسطينيين ، أو تقديم المساعدة لعملاء لاسرائيل فى الدول العربية ، أو لدرء الاخطار المحتمل حدوثها نتيجة تغير خطير فى الوضع السياسى لبلد مجاور ، أو اثارة الشعور بالخوف المستمر من العسكرية الاسرائيلية باعتبار أن ذلك عامل ردع ضد أى هجوم عربى .

● ايجاد جهاز مخابرات على أعلى مستوى عالمى يستطيع امداد القيادة بالمعلومات الفورية .

● تأمين الحدود بضم مساحات متتالية من الاراضى العربية تصلح حزاما وقائيا ضد أى ضربة يمكن ان يوجهها العرب . وكانت هذه النقطة مرتكزا جغرافيا لنظرية الامن الاسرائيلى فى أعقاب حرب يونيو ، أضاف الى الامن الاسرائيلى بعدا اقليميا ، وعزز نظرية القائلين، بأن الارض خير وسيلة للدفاع .

وحينما توجت اسرائيل فى الثانية من ظهر يوم السادس من أكتوبر ١٩٧٣ بأن خط بارليف قد تحطم، وأن الدبابات الاسرائيلية تنصهر بفعل الصواريخ المصرية المحمولة على الاكتاف ، كان هذا ايذانا بزعزعة كبيرة زلزلت الفكر

الاستراتيجي الاسرائيلي . وتنت العرب بهذه الصورة على نظرية الامن الاسرائيلي بمرتكزاتها الاساسية :

١ ــ فقد انهارت القوة على الردع: حيث تم اخلاء المستعمرات العسكرية التى أنشئت كقوة ردع ، على مرتفعات الجولان لتسهم فى الدفاع عن اسرائيل بسرعة . كذلك اخليت شرم الشيخ من السكان فانهار التفكير فى التمسك به كمركز استراتيجي حيوى وخاصة بعد أن حول المصريون عملية خنق اسرائيل من شرم الشيخ الى باب المندب على بعد مئات الاميال .

٢ ــ وانهارت نظرية الحدود الامنة: فلم تسعف أسرائيل تلك الاراضى التى احتلتها ، لدرء الخطر عنها ،وانهارت خطوطها الدفاعية فى بارليف وفوق تلال الجولان ، وانقلبت صورة الجيش الاسرائيلى من جيش لايقهر الى جيش يمكن قهره بعد أن قاتل ــ لاول مرة ــ وجها لوجه مع الجندى العربى فى اختبار للقوة ، فشل فيه الاسرائيليون .

٣ ــ وانهارت نظرية الحروب الخاطفة بعد أن قضت الصواريخ المضادة للدبابات من طراز [آر.بى.جيه] على سرعة الحركة التعبوية للمدرعات الاسرائيلية وعلى سرعة الحركة الاستراتيجية ايضا . وكانت أقوى المفاجآت غير السارة لاسرائيل ان بوغت الجنود الاسرائيليون المملوءون زهوا وغرورا وصلفا، بالمشاة المصريين المنظمين والمدربين تدريبا عاليا ، مسلحين بأسلحة مضادة للدروع ، مما أصاب نظرية الحرب الخاطفة الاسرائيلية فى الصميم .

٤ ــ وانهار جهاز المخابرات الاسرائيلى : عندما فشل فشلا ذريعا فى التنبؤ بما تدبره مصر قبل ٦ أكتوبر كما فشل فى تقويم القوة العربية وكشف النوايا مبكرا . وبقدر ما كان انكشاف ضعف المخابرات الاسرائيلية واضحا ، كان ذلك يحمل فى طياته دليلا واضحا على براعة المخابرات المصرية وقدرتها الفائقة على اخفاء النوايا المصرية فى الحرب والتمويه على العدو ، وهئه على الاسترخاء لعدم توقع اى مفاجأة محتملة .

فقد اثرت ايضا على الوضع الاقتصادى الداخلى ــ مما لن نتعرض له لضيق المجال ــ ، الامر الذى أضعف من الروح المعنوية للاسرائيليين .

اما العرب ، فقد شعروا ــ لاول مرة ــ بثمار الوحدة ، وكان مذاقها رائعا ، يخرس الالسن الاقليمية ، ويؤكد ، أن ادنى حدود الوحدة ، وهى وحدة الصف العربى ، قد احدثت زلزالا هز اسرائيل ودمر كل ما اقامته من معتقدات . واستطاع العرب ان يقضوا على اسطورة [السوبرمان] الاسرائيلى، وكان ارتفاع الروح المعنوية للعرب ارتفاعا اسطوريا ، حقق ما تنبأ به « نابليون » من أن النسبة بين الروح المعنوية والعتاد الحربى ، هى ٣ الى واحد .

وهكذا وقف العالم مبهورا فى السادس من اكتوبر ، يشهد الارض عندما زلزلت زلزالها ، وعندما أخرجت الارض اثقالها .. لان ربها اوحى لها ... وعندما فر الاسرائيليون اشتاتا ليروا اعمالهم .. !!

د. محمد أسماعيل على
كلية الشريعة والقانون جامعة الازهر